

كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون / السداسي الأول

مقياس: السينما الصامتة

المحاضرة رقم 09 بعنوان:

"الميلودراميات الأولى في السينما الصامتة"

يعطي الكاتب والمنظر الفرنسي 'باتريس بافيس' في معجمه المسرحي تعريفا دالا لمصطلح الميلودراما، الذي يستقى تعريفه حسب المصدر اليوناني، فهي مسرحية غنائية، كما هي نوع مسرحي ظهر في القرن السابع عشر على شكل أوبرا شعبية قصيرة ترفق بموسيقى في اللحظات الدرامية للتعبير عن انفعال الشخصية الصامتة.

فالميلودراما هي كلمة مشتقة من كلمتين إغريقيتين، هما mélos: التي تعني اللحن أو الغناء، وكلمة Drama بمعناها المعروف لنا، وكانت هذه الكلمة عند انتقالها من إيطاليا إلى فرنسا مرادفة لكلمة Opera، أي المسرحية الغنائية. ولكن ما إن حل القرن التاسع عشر حتى اتخذت هذه الكلمة مدلولاً جديداً عرفت به فيما بعد، ألا وهو المسرحية الشعبية ذات الحكمة الجادة، التي تعتمد على المبالغة والإثارة، وتتخللها بعض المشاهد الفكاهية، وتصحبها ألحان من الموسيقى التصويرية، من هنا ظهر مصطلح (الدراما الموسيقية) والذي يستخدم الموسيقى، إما لتزايد حدة رد الفعل العاطفي عند

المتلقي، أو تستخدم لاقتراح وتقديم لشخصيات، مع مرور الوقت اكتسب المعنى شمولية أوسع، فأصبحت تعني التعبير عن طريق الزخم العاطفي وإشباع المادة أيا كانت رواية، مسرحية، فن تشكيلي، موسيقي والسينما، بالتعبيرات العاطفية والشعورية والمتخيلة، وكان أول من استخدم المصطلح هو الكاتب الفرنسي 'جان جاك روسو' في مسرحيته 'بيجماليون سنة 1770'، فقد كان يرغب في التمييز بين إعداد مسرحيته وإعداد الأوبرا الإيطالية الجماهيرية، واستخدم المصطلح ليصف شكلا من الدراما، حيث الموسيقى تصاحب الكلمة المنطوقة بهدف زخرفة المضمون الوجداني للحوار والتأكيد عليه.

وعليه، كانت الميلودرامات في المأساة اليونانية وبدءا من القرن الثامن عشر حيث دلت على الأوبرا، وهي عبارة عن دراما ترفق بحوارات وأغان، وفي القرن التاسع عشر تطور معناها نحو دراما شعبية قريبة من العنف في الرواية القوطية (Gothique) الإنجليزية، التي تقترن عاطفيتها المبكية بالمفاجآت المسرحية والحبكات معقدة ويكون أشخاصها النموذجيون، هم: العاشق الأول الشاب والبطلة المضطهدة والخائن المخادع الوصولي، وكل هذا مدعوم بموسيقى معبرة، لتستعيد السينما منذ البداية هذه الذخيرة الشعبية، كما يشتهر سينمائيون كبار في هذا النوع من أمثال دافيد غريفت في فيلم 'الزنبقة المحطمة 1919 Le lys brisé' والمخرج فرانك بورزاج 'Borzage' في فيلم 'ملاك الشارع Street Angel 1927' والمخرج سيرك 'sirk' في 'السر الرائع Le secret magnifique'.

وأصبح من السمات الأساسية للميلودراما، تجسيد تقنيات الإعداد المسرحي المتقنة، بما في ذلك تطور ابتكارات ساعدت على سرعة تغيير المشهد المسرحي، واستخدام البكرات والمحاور الدوارة (لصنع تأثير حدث متواز ومشاهد متوازية)، واستخدام إبهار الفرجة، كل هذه الأدوات المسرحية، والأسلوبية والتقنية، والتي تأسست عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أثرت بوضوح على تطور السينما المبكرة التي اعتمدت تماما على نمط الميلودراما المسرحية الجماهيرية، فنجد على سبيل المثال أعمال غريفت متأثرا بالميلودراما المسرحية، والكثير من أفلامه خاصة فيلم 'يتامى العاصفة 1921' كانت إقتباسات عن ميلودرامات مسرحية جماهيرية.

فلميلودراما أحداث غير مبررة، التي ليست لها رابط بين الشخصية وما تقوم به من أفعال، فيمكن أن نرى فاجعة دون أن نعرف مبررا بهذه الفاجعة، أي أن الميلودراما لا توضح مبررا للحدث،

بمعنى أن جانب الحكبة في الميلودراما يتغلب على جانب رسم الشخصية ، بينما توجد الميلودراما حيث توجد قصة حب ما ، حالما يتجه الفيلم إلى مشاعر الجمهور تهض الميلودراما، ويعد 'شارلي شابلن' أعظم شخصية في هذا المجال، كون جل أفلامه اتسمت بطابع ميلودرامي، إضافة إلى أفلام ديفيد غريفيت.

بينما تعتمد الميلودراما في السينما على تكثيف الصور العاطفية وإشباع المشاهد بالأحاسيس الشعورية وتحريك المشاعر، عبر طرح قضايا مختلفة تقدمها بأسلوب متوهج ولا يخلو من المفارقة، لتنتج تأثيرا من المبالغة والافراط في المشاعر ضمن الأسلوب وأداء الممثلين والإخراج، من هنا تعتبر الميلودراما في السينما، نوع من السرد القصصي يركز على المحتوى العاطفي القوي، وغالبا ما يصنع التميز الواضح ما بين الخير والشر.

إلا أن الميلودراما في السينما تعطي قاسما مشتركا مع النموذج الميلودرامي في المسرح، والذي يركز على الحدث، والحادثة، والمخاطرة، بيد أن الميلودراما سمة محورية في السينما الأمريكية والثقافة بشكل عام، وأنه يمكن تعقبه جذورها في الأدب العاطفي والرومانسي للقرن التاسع عشر، من خلال السينما المبكرة في أعمال المخرج 'سيسيل دي ميل'، و'دافيد غريفث'، وهوليوود الكلاسيكية، حتى الأعمال المعاصرة لمخرجين مثل 'فرنسيس كوبولا' و'ستيفن سبيلبيرج'.

وتعد الميلودراما أحد الأصناف السينمائية في تشكيلها الفني الواضح المعالم، شخوصها واضحة وغير ضبابية، فشرير العمل الميلودرامي هو شرير على طول الخط، والبطل لا يتنازل عن مبادئه مطلقا، ولو بدت هذه الشخصيات أنها تنتقل من حال إلى حال بسرعة غريبة، ولكن في السطح كالانتقال من الضحك إلى البكاء أو من الحزن للسعادة، أما خطوط الشخصية في العمق فأصيلة وثابتة، من هنا يصعب حل المفارقة. وبالعودة إلى السينما الأمريكية، فالتركيز كان كاملا حول التركيب الفيلمي أكثر من التركيز على الإخراج، حيث اقترن بتطور أسلوب سينمائي جديد منسوب إلى إبداع الشخصيات الفردية، فالتمثيل السينمائي بدأ يزيد في الجمع بين الدراما الواقعية والأعراف المقننة لأسلوب الأداء التمثيلي القديم المرتبط أساسا بالميلودراما.

أما عن الميلودراما الواقعية، فقد حققت تطورها لسنوات عديدة، وهناك شيئان بصفة خاصة يميزان هذه الأفلام: الشيء الأول هو أنها تحتفي عادة بالمناظر الطبيعية الخاصة أو الوسط، حيث المكان يبرز تصوير 'الحياة الباطنية' لشخصية أو أكثر، وفي الوقت نفسه يشكل المكان حقولا ثقافية للسياح. والشيء الثاني تلك المناظر الطبيعية أو وسط مزرعة بين الأقاليم مستفيدة من تصوير بعض المساحات الجغرافية المعينة والثقافات المحددة، وغالبا ممتزجة بحنين الماضي، كما استفادت السينما في بواكرها الأولى من العروض المسرحية الميلودرامية ومن التكنولوجيا المتطورة التي أدخلت الصناعة السينمائية إلى منحى التطور والتجريب، حيث نجد المغامرات والمفاجآت والاستعراضات ضمن صفاتها الشكلية، بالإضافة إلى صفتها الموضوعية التي تبين انتصار الخير على الشر.

المكتبة البيبليوغرافية:

- * باتريس بافيس، معجم المسرح، تر: ميشال ف. خطار.
- * ماري تيريز جورنو، معجم المصطلحات السينمائية، تر: فائز بشور.
- * ويليام قي كوتانزو، السينما العالمية من منظور الأنواع السينمائية، تر: زياد إبراهيم.
- * محمد حمدي إبراهيم، رحلة الدراما عبر العصور.
- * باري كيث جرانت، موسوعة السينما، تر: أحمد يوسف، ج1، ج2، ج3.